

تحرير الرّها وأثرها على مجرى الحروب الصليبية

د. إبراهيم زعرور

جامعة دمشق-قسم التاريخ

تعد مدينة أورهي (الرّها) EDESSA -اليوم أورفا في تركيا- حاضرة أوسروين، من أمهات مدن بلاد الجزيرة من حيث موقعها الاستراتيجي، ومكانتها العلمية والأدبية، ومركزها كنقطة انطلاق للحركة التجارية في كل المنطقة، ودورها الفعال المتميز في نشر تعاليم الديانة المسيحية، ليس في المدينة وما جاورها من المدن والقرى فحسب وإنما في مناطق بلدان الشرق بخاصة وآسية بعامّة. ويعتز السريان كعرب ويفتخرون بمآثر هذه المدينة الخالدة، ويمجدون ذكرى ماضيها التليد، ويهللون لمواقف آبائهم الرهاويين من أمثال: مار افرام، ومار دابو، ومار يعقوب، ويؤمنون بأن التقاليد والأمجاد والبطولات السالفة التي ارتبطت بماضي الرّها تشكل عنصراً هاماً من عناصر مقومات وحدتهم ضمن أمتهم العربية، وكما قيل قديماً أن "لا إنسان بلا تاريخ ولا تاريخ بلا إنسان"⁽¹⁾. لقد عرفت الرّها عبر ماضيها الطويل أهم القادة العسكريين والسياسيين من بابليين وأشوريين ورومان وفرس، ولكن دورها برز بشكل خاص أولاً في العصر السلوقي، ثم تبلور ونما ونضج أكثر فأكثر عند اعتناقها الديانة المسيحية...

إن المسافر الذي يصل إلى أورفا من الغرب -على الطريق الذي سلكته القوافل سعياً وراء التوابل والأحجار الكريمة والموصلين والحرير من الهند والصين، والذي سلكته أيضاً الكتائب الرومانية البيزنطية والحجاج وطلاب

العلم - قليلاً ما يخطر بباله المشهد الذي ينتظره إلى أن يصبح على بعد بضعة أميال من المدينة⁽²⁾.

وبعدئذ ينحدر الطريق الملتوي بشدة، وتفسح التلال البنية الجرداء المجال للأشجار والبساتين، وتمتد حقول القمح في سهل حرّان بعيداً إلى الجنوب على قدر ما تستطيع العين رؤيته⁽³⁾، ثم تبدو المكعبات البيضاء للأبنية الجديدة في أملاك أورفا فجأة أمام البصر، وبعد التواءة أخرى في الطريق تتكشف القباب ومآذن المساجد، وأخيراً وعلى مسافة بعيدة يظهر عمودان شيقان متوجان بتاجين كورنثي النمط على قمة القلعة يسيطران من شاهق على الريف، أشران مزيدان منعزلان من الزمن الروماني.

إن الترتيب الذي تبرز فيه معالم أورفا هو ذو أهمية غريبة، وهي تمثل ثلاث مراحل متتابعة متعاقبة في تاريخ المدينة، فأورفا اليوم هي مدينة مزدهرة، سكانها حوالي ثمانين ألف نسمة، ومركز لوال، وهي المدينة الرئيسية لإقليم واسع، ولقد ترك الإسلام طابعه على عادات ومظهر المدينة، وعُرفت المدينة باسم الرّها أو أوديسا، وكان لها بطبيعة الحال أكثر من شهرة محلية، وبقيت لأكثر من ألف سنة تحتل مركزاً فريداً في العالم المسيحي بصرف النظر عما إذا كان حكامها من الرومان أو البيزنطيين أو العرب أو الأتراك أو من الأرمن أو اللاتين، ولقد قرنتها التقاليد بالسيد المسيح نفسه، وبالنشاطات التي قامت بها إرساليات المسيحية الأولى، وإليها أيضاً أمّ الحجاج من مدن ما بين النهرين وبلاد الفرس حتى من الشرق الأقصى، وكانت أساطيرها معروفة ومبجلة في أوروبا الغربية قروناً قبل العصر النورماندي، وكانت أديرتها وكهوفها مساكن للقديسين والعلماء والشعراء، وكانت شهيرة في العالم المتمدن بأنها مولد الفلسفة والأدب السريانيين⁽⁴⁾.

كانت سيطرة البيزنطيين على الرّها ضعيفة، فالمنطقة التي هي مركزها، كانت صغيرة ولم تكن لتمتد أكثر من ثمانين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي لتضم

السويداء، وكانت هناك إمارات إسلامية قوية في الشرق، كما أن حران تبعد أقل من أربعين كيلومترا إلى الجنوب، أما سروج فالمسافة نفسها إلى الغرب، وكانت الطريق المباشرة من الرها إلى القاعدة البيزنطية في إنطاكية تقطعها القوات الإسلامية من حلب، وكانت سميساط على نهر الفرات⁽⁵⁾، شمال شرق الرها توفر الاتصال السليم الوحيد بالمقاطعة المسيحية، ولكن حتى الطريق إلى سميساط كانت تهددها القوى الإسلامية، والواقع هو أن الانشقاق بين الزعماء العرب الصغار على تخوم خلافتي بغداد والقاهرة العربيتين الإسلاميتين هو الذي سمح للمقاطعة المسيحية المسدودة المسالك في الرها بالبقاء. ومع هذا فإن انعدام الوحدة وتجزئة مناطق الحكم لم تكونا حكرًا على الجانب العربي الإسلامي،، فهذه الحقبة كما هو معروف في تاريخ المنطقة شاهدت النمو القطري لإمارات مسيحية أنشأها محاربون أرمن خرجوا من أوطانهم في المشرق ممتدين من أعالي الفرات عبر هضبة الأناضول، وغدا الأرمن قواد الحاميات البيزنطية ونالوا الحظوة لمهارتهم وشجاعتهم، ولكن لم يكن لهم أي ولاء للإدارة المركزية للإمبراطورية، وقام البيزنطيون من الرها بغزوات للمقاطعات المجاورة لحران وسروج، ويبدو أن سيادتهم الداخلية الاسمية كان معترفًا بها من قبل شبيب بن وثاب النميري حاكم حران، وقام بيزنطيون الرها مع شبيب بحملة مشتركة ضد نصر الدولة المرواني -حاكم آمد وميافارقين- سنة 426هـ -34-1035م⁽⁶⁾، ومهما يكن فقد كان شبيب حليفًا لا يُعتمد عليه، ففي سنة 427هـ -36-1036م⁽⁷⁾، احتل السويداء من البيزنطيين وحاصر الرها نفسها بقوات أرسلها نصر الدولة، ونجح قائد الرها بالهرب ولكنه بينما كان عائداً إلى الرها على رأس خمسة آلاف محارب وقع في كمين وطلب شبيب المدينة ثمناً لإطلاق سراحه، ولم يكن أمام السكان الذي أضرت بهم المجاعة طريق سوى التسليم، ودحر المسلمون قوة مختلطة من العرب والبيزنطيين بقيادة حسان بن المفرج أمير طي حاول أن يأتي لنجدة الرها، غير أنهم لم يستطيعوا زحزحة الحامية البيزنطية من القلعة، ويقال أنهم فقدوا مئتي رجل في

هذه المحاولة، فنهبوا المدينة عوضاً عن ذلك، وقبضوا على ثلاث آلاف شاب وامرأة كما يقول مدونو الأحداث⁽⁸⁾، وأرسلوا مائة وستين حمل حمل من الرؤوس إلى آمد، ولكن بدون امتلاك القلعة لم يستطيعوا احتلال الرها، وعندما قام البيزنطيون بمناورة هجوم مصطنع على حران انسحب شبيب كلياً، وفي سنة 428هـ-1037م ظهر خطر عظيم على جناحه الشرقي ببرز قوة السلاجقة، فسلم شبيب مدينة الرها للحامية البيزنطية عن حكمه، إذ كانت الحامية قد عززت بجيوش أرسلها قسطنطين أخو الإمبراطور باسيل الثاني ذابح البلغار من إنطاكية، وتكون السنوات التالية سجلاً مكرراً من العنف، وفي حوالي سنة 437هـ-1045م⁽⁹⁾، قيل أن السلاجقة احتلوا مدينة الرها (وملطيية وسميساط)، ولكنهم تراجعوا عنها بعد حين، وكان "قطبان" Catepano الرها سنة 1059م يوحنا دوسترس وشاركت القوات العسكرية الأهلية للمدينة بقيادة القائد تافاداتس بغارة بيزنطية ناجحة على آمد، ولكن قوات السلاجقة كانت بازدياد وتهددهم للرها في تصاعد، فغزوا المنطقة عدة مرات سنة 459هـ-1066م والسنة التالية، ودحروا الجيوش البيزنطية مرة بواسطة حقد أو خيانة حاكم الرها وأحد ضباطه- وأخذوا أسرى عديدين، وفي سنة 461هـ-1067م دخل قائد بيزنطي لقلعة مجاورة في معركة مع السلاجقة، ولكنه دحر، واشترى قائد الرها حريته بعشرين ألف دينار وهذه سابقة اتبعت مراراً في القرن التالي، وبعد أربع سنوات في ربيع سنة 463هـ-1071م، سار ألب أرسلان غرباً "كنهر فاضت جوانبه" فدفعت السويداء له فدية واستسلم له حصن آخر، وبعد أن استرجع الرهاويون عزيمتهم من الرعب الأولي الذي أصابهم من غارة هذا السلطان الكبير، دافعوا عن أسوارهم، والمهم أن السلاجقة هاجموا المدينة ولم يستطيعوا اختراق التحصينات، وبعد حصار طويل ثم الاتفاق على دفع الفدية التي قدرت بخمسين ألف دينار، والاعتقاد السائد آنذاك أن الرها قبلت سلطة السلاجقة الاسمية واستمر السلطان بمسيرته غرباً، وبعد زمن قصير مرّ ألب أرسلان بجانب الرها عند رجوعه إلى الشرق فاستلم من قائدها الهدايا، والجيد

والبغال والمؤن، وخلصت المدينة من هجومه، وفي السنة نفسها تقدم الإمبراطور رومانوس ديوجينيس بنفسه لمحاربة السلاجقة، فقابله ألب أرسلان ودحره في منازكد في شهر آب من السنة نفسها وأطلق سراح الإمبراطور بعد أن تعهد بتسليم المدن الرئيسية في الجزيرة بالإضافة إلى مبلغ ضخم من المال... وبهزيمة منازكد⁽¹⁰⁾، انهارت المنطقة الدفاعية البيزنطية بأكملها في الجزيرة، والاضطراب الداخلي في العاصمة أضعف قوتها لاسترجاع الأرض الضائعة والحروب المستمرة أنقصت عدد السكان في المنطقة وأهملت الحقول، وفي الرّها فقط وجد أمن ووفر وحياة هائلة، واستقر بفعل العوامل الداخلية والخارجية، ويكتب مدونو أحداث 473هـ 1079-1080م، أنه في الأماكن الأخرى "كان الأشخاص المشهورون والنبلاء والزعماء والنساء الرافقيات يتجولون ويستجدون خبزهم... والجثث مطروحة دون دفن... ومات الكثير من الكهنة والرهبان المحترمين... وهم يجرون خطواتهم على أرض غريبة"، وجرّت أحداث كثيرة ومتتالية انتهت بموت ملكشاه سنة 485هـ-1092م، الذي تحطمت سلطنته الواسعة التي عاش فيها المسلمون والمسيحيون بؤام⁽¹¹⁾، ونشب قتال ثانية بين مدّعي السلطة نتيجة الانشقاق وفي سنة 488هـ-1094م قبض على بُزان في معركة ضد تنش الذي أرسل رسالة في الحال إلى الرّها يطلب تسليم المدينة، ويبدو أن بُزان حاكم الرّها كان قد أثر تأثيراً طيباً في الرّها فرفض السكان والحامية في القلعة الخضوع وتسليم المدينة دون إشارة ما من بُزان نفسه، فصرفوا رسول تنش صفر اليدين⁽¹²⁾.

وأما المدير الإداري للرّها طوروس، فقد خشي أن يُدخل السلاجقة الذين في القلعة جيوشاً غريبة ويكسبوا السيطرة على المدينة، لذا شيد على عجل سوراً داخلياً بخمسة وعشرين برجاً بمحاذاة النهر شمال القلعة، من باب النهر في الغرب وحتى كنيسة القديس ثيودور، وأكمل السور قبل أن يصل من تنش جواب سريع: رأس بُزان نفسه مقطوعاً مع القائد ألب ياروق، الذي كان يحمل

تعليمات بالاستيلاء على القلعة، وأن تعطى المدينة للجند كي ينهبوها لأنها رفضت أوامر طاعة تتش، وركز ألب ياروق نفسه في القلعة وخيم عسكره غربي المدينة حول كنيسة القديس يوحنا المعمدان... وبعد وفاة تتش⁽¹³⁾، بالمكيدة التي دبّرت له في شباط 489هـ-1095م غدت القلعة ثانية في أيدي المسيحيين، ويمكننا الافتراض بعد أن آلت الأمور إلى طوروس أنه اعترف بسلطة بيزنطية... وبعد حين وجيز، أي في سنة 489هـ-1096م، قام سكران حاكم سروج الأرمني وحاكم سميساط بلدوق وحاصر الرها وأحدث ثغرات في السور، ولكن قبل أن يستفيدا من نجاحهما بلغتهما أخبار وصول قوات سلجوقية منافسة تحت قيادة رضوان بن تتش حاكم حلب ويغسيان الأنطاكي فلذا بالفرار... وحاصر القادمون الجدد الرها بدورهم، وقاومت المدينة هجماتهم، غير أنهم تقاتلوا ثم تركوا الحصار⁽¹⁴⁾، ولكن الشعب الرهاوي كان قد تضعضع من كل جانب وغدا الآن منهكاً من الأخطار التي تعرّض لها بصورة مستمرة، وكانت طرق مواصلاتهم قد قطعها الحاميات التركية في سميساط وآمد وحران وسروج، وأصاب حقولهم التلف والدمار، كما أخذ الأتراك أبناء وجهائهم كرهائن، فالتفتوا بأنظارهم إلى أماكن أخرى طلباً للغوث، وهكذا بدأت الحقبة الغربية التي ختمت مصير الرها المسيحية ختماً نهائياً.

ووصلت الأنباء إلى الرها بأن القوات الصليبية قد قدمت إلى نهر الفرات بقيادة الأمير بلدوين دو بويون (أخو غودفري-الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية) وتوجهت من مرعش شرقاً فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية ووصلت أخيراً إلى الرها فاحتلتها واتخذت منها قاعدة لأولى إمارات الصليبيين في المشرق⁽¹⁵⁾، ومما لا شك فيه أن الروايات تعددت حول تقديم المساعدات للفرنجة من أجل احتلال الرها وإنطاكية أيضاً، ويرجع البعض أنه من أسباب نجاح هذه الفئة عند إنطاكية والرها كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا إما سرياناً أو من أصل أرمني، يضاف

إلى هذا أن سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية مكروهة وليس لها قواعد متينة، ثم أن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر. ثم أن الأرض لم تكن "بعد أرض تركمانية"، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم ومصالحهم، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان⁽¹⁶⁾.

وأدرك سكان الرّها بسرعة أنهم استبدلوا سيّداً بسيد آخر.. صحيح أن المدينة استمرت في شهرتها السابقة كحصن للمسيحية، ولكن حكامها الجدد كانوا غرباء غير متعاطفين مع التقاليد وأسلوب الحياة في المنطقة، ورأت الرّها نفسها تسير في نهج مليء بالأخطار.. وعلى العموم نجد أنه على الرغم من التحاسد القائم بين بعضهم بعضاً، لم يتمكن الصليبيون من توسيع أملاكهم شوق الرّها لما لاقوه من مقاومة فعالة من حكام الموصل. وأمراء الأرائقة نجحوا في الاحتفاظ بالأراضي القريبة من المدينة في قبضتهم، وكان هذا يرجع إلى حد كبير إلى عدم فعالية القواد التركمان باستثناء القائد مودود⁽¹⁷⁾ سنة 504هـ—507هـ—1110-1113م، ومهما يكن من أمر فإن الفرنجة جابهوا في الأتابكي أمير الموصل عماد الدين زنكي خصماً ذا دهاء وعزم وحيلة واسعة، بينما كان حاكم الرّها جوسلين الأصغر عديم الأثر والشأن. وكانت الرّها شوكة في جنب الأتابكة، وعمل زنكي كل جهده ليلقيها محايّدة، وفي سنة 525هـ—1129م، بينما كان زنكي ماراً قرب الرّها أرسل رسالة صداقة أعلن فيها رغبته في السلام مع الفرنجة، فأرسل له الرهاويون لقاء ذلك الهدايا والطعام والشراب، ولكن الموقف تبدل الآن فقد جر جوسلين على نفسه عداً عماد الدين زنكي حين عقد ميثاقاً مع منافسه الأرمني قرا أرسلان حيث سلم هذا الأخير قلعة إلى جوسلين، وحدث في هذه الآونة سنة 538هـ—1143م أن مات الأميران المسيحيان اللذان ربما كان باستطاعتهم كبح جماح وخطط زنكي التوسعية،

ففي نيسان سنة 538هـ-1143م توفي الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومينوس الذي كان الأمل يعمر قلبه بتعزيز مطلبه في بسط سلطته على كل من الرّها وإنطاكية وفي تشرين الثاني من السنة نفسها توفي فولك ملك القدس...

وانتظر زنكي أحسن الفرص، وراقب تطور الأحداث في الرّها بواسطة حكام حرّان المسلمين، وفي نهاية 539هـ-1144م ترك جوسلين المدينة مصحوباً بقوة كبيرة، وبموجب ما يقوله المؤرخون وتؤكد المصادر أنه كان يحضر نفسه ليقوم بغارة على منطقة الرقة ليقطع خطوط مواصلات زنكي أو لأسباب أخرى منها الذهاب إلى إنطاكية أو إلى تل باشر لاقتراف أعمال الفسق والمتعة هناك.

وفي الحال أرسل زنكي جيشاً لبيّغت الرّها، فसार الجيش أثناء النهار، وفي الليلة التالية، ولو وصل الجيش تلك الليلة لوجد السكان غير مهينين كلياً، ولكن ظروف الطقس وانهمار المطر بشدة أدّى إلى أن الجند أضلّوا الطريق واقتربوا من المدينة في الفجر عن طريق حرّان، وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة 539هـ/1144م، عندما مروا في الريف جنوب الأسوار لاحظوا بسرعة أن المدينة معززة تعزيزاً خفيفاً فأرسلت رسالة إلى زنكي بواسطة الحمام الزاجل، فأتى بعد يومين ليحيط بالمدينة من كل جانب، وجرى حصاراً محكماً للرّها وكانت تعيش التناقضات بسبب وجود الفرنجة والمسيحيين العرب وغير ذلك من الأقوام المختلطة، ويكتب وليم الصوري بتوبيخ صارم قائلاً: أنه كان في الرّها "سريان وبعض الأرمن من غير المحاربين وعبيد يجهلون كلياً استخدام واستعمال السلاح، ويعرفون فقط فنون التجارة"⁽¹⁸⁾، بالإضافة إلى بعض أفراد اللاتين، كان في الرّها مؤن كافية من السلاح والمأكولات، كما كان لها سور قوي مع القلعة العليا والقلعة السفلى بأبراج عالية،" ويضيف وليم الصوري: "لنجعت هذه الأشياء كلها ضد

المهاجمة، لو كان هناك شعب يريد القتال من أجل الحرية ويقاوم العدو بشجاعة"...

إن ملاحظات ولیم الصوري الانتقادية هذه إنما تعكس ازدياد الفرجة للمسيحيين المحليين، وهم مظلومون بهذا النقد الفاضح من كاتب إفرنجي... فإذا كنا نتفق مع ما قاله باسيل بارصومانا فإنهم لم يتخلوا عن عنادهم الشرس وروح العزم والإرادة الذاتية في وجه أحداث جلبت الكوارث والفاجعة على سكان الرّها "لقد قاوموا مقاومة شديدة وصمدوا (أمام الهجوم) بشجاعة طالما كانوا قادرين على ذلك، ولم يترك التركمان شيئاً هذه المرة للصدف، فأقاموا الاستحكامات الترابية، ونصبوا آلات الحصار، وانهالوا على الأسوار بالتدمير، وأهالوا وإبلا من النبال على داخل المدينة، وحفروا الخنادق تحت الجسر خارج الباب الشمالي... وأراد زنكي أن تستسلم المدينة كي لا يهلك سكانها وألا تدمر (المدينة) وطلب من الرهاويين أن يسلموا تحت شروط متفق عليها وأجابوا زنكي بالإهانات والشتائم... ومع ذلك فقد كانت تحصينات المدينة لا أمل منها، وأصاب سكان المدينة والمدافعين عنها الإنهاك من شدة الجوع لأن حصار زنكي كان محكماً، وأرهقت النساء والفتيات من التعب إلى حد يفوق الوصف وهن يحملن الحجارة والماء والضروريات الأخرى للرجال المحاربين وكن هدفاً متواصلاً للمنجنقيات، وأحدثت ثغرة في السور وقوضت أساساته، وكانت نفايات من ألواح الخشب مكدسة والفجوات قد علقت، أي حشيت بمواد مشبعة بالنفط والدهن والكبريت، جاهزة لإضرام النار فيها، وبموجب إحدى الروايات فإن التركمان دعوا الرهاويين لياتوا ويتفحصوا أعمال الحصار لإقناعهم بأن لا سبيل لهم سوى الاستسلام، وبالفعل كانت أجهزة التقيؤ قد جهزها حليبيون لهم معرفة جيدة بطبوغرافيا الرّها، وبعد حوالي أربعة أسابيع من بدء الحصار، وفي اليوم الثالث والعشرين من كانون الأول أو ليلة عيد الميلاد، أضرم جنود زنكي النار في العوارض قرب الباب الشمالي وأتت النيران على الدهن

والكبريت، وحملت ريح شمالية الدخان نحو المدافعين فتداعى السور العظيم وسقط معه برجان إلى الأرض، وبرهن البناء الذي أقامه الرهاويون داخل السور على أنه قصير العمر، واستطاع جنود زنكي دخول المدينة، وبعد يومين من دخولها سلمت المدينة، وانتهت المقاومة فيها، وقام زنكي بتفقد المدينة وعابن السجناء، وأطلق سراح عشرة آلاف جندي واتخذ إجراءات منها انتزاع الذهب والفضة والأواني والكؤوس والطاسات من الفرنجة... وبعد أربعة أيام من دخول زنكي الرّها غادرها إلى حرّان والرقّة تاركاً في الرّها والياً اسمه زين الدين علي كجك⁽¹⁹⁾، وهو رجل صالح عمل الكثير من المعروف، ومعه سبعة نواب، وفي كانون الثاني سنة 540هـ-1145م سقطت سروج في يد زنكي، ومن هناك سار جيشه إلى البيرة على نهر الفرات، وبعد حصار دام أربعين يوماً خلصت فقط بانسحاب زنكي ليعالج مؤامرة قامت في الموصل، وكان تحرير الرّها انتصاراً حاسماً ونقطة تحوّل كبرى في تاريخ الوجود اللاتيني في الشرق، وأصاب ابن الأثير وغيره من المؤرخين العرب حين أثّروا وأشادوا بزنكي وبيّنوا أنه استحقّ الجنة لفتح الرّها⁽²⁰⁾.

وكانت أصداء تحرير الرّها كبيرة جداً في بغداد مما دفع بالخليفة إلى تبجيل زنكي ومنحه المزيد من الألقاب الباذخة من ذلك أنه سماه "زين الإسلام، الملك المنصور الغازي، ناصر أمير المؤمنين"، وأهداه جياداً عدتها من ذهب، وسيفاً ذهبياً وراية ورداء وعمامة سوداء⁽²¹⁾.

أما بالنسبة للفرنجة، فقد كانت نتائج سقوط الرّها خطيرة، إنها قضت على طموحهم للسيطرة على أراضي شرقي الفرات، وذاع النبأ في العالم المسيحي بأن مدينة أبحر سقطت في أيدي المسلمين، وبدا الخطر وكأنه يهدد إنطاكية اللاتينية، وحتى القدس نفسها، فكما عدّ تماماً إعطاء الرّها لبلدوين سنة 1098م علامة شؤم لسقوط القدس، هكذا كان ضياعها شؤماً على المملكة اللاتينية، ولسوء الحظ لم تنته حكاية الرّها واهتمام زنكي ورعايته لها

والإصلاحات التي أجراها وأدخلها في حياة الرهاويين... ففي أيلول 1146م، اغتيل زنكي بينما كان يحاصر قلعة جعبر، الأمر الذي أبهج أعداءه الذين لم يعترفوا مطلقاً بتسامحه وكرمه...

ونعود لنسرد بالتفصيل وقائع تحرير زنكي للرّها:

((كان باسيل رئيس الأساقفة اللاتين يقنع أن يكتب إلى زنكي ويطلب منه هدنة أملاً في أن الصليبيين قد يستجيبون لالتماسهم ويرسلون قوة نجدة من إنطاكية أو القدس ويرجع أن زنكي كان سيمنح هذه الهدنة، ولكن الرسالة وقعت في يد (رجل يتعاطى في بيع الأقمشة) فمزقها إلى نطف علانية... وحدث اضطراب عظيم، ولم تسفر هذه الخطة النافعة عن شيء...)) وفي وصف للمؤلف السرياني الرهاوي المعاصر لزنكي، طبيعة تواضع القوات المحاصرة ((حيث نصب زنكي خيمته مقابل باب الساعات على التلة فوق كنيسة الاعتراف وإلى الشرق منه نصبت خيمة الملك المعظم بن السلطان وإلى الشمال كانت خيمة الوزير جمال الدين الأصفهاني، وأما صلاح الدين البيغسياني القائد العام لجيش زنكي، فقد نصب خيمته في الغرب مقابل باب النافورة على تلة المقبرة، حيث يوجد ضريح مارأفرام وفوقه في أعلى وادي سليمان كان زين الدين علي كجك صاحب إربل، وشهرزور مقابل حدائق بارصوما، وشرقي الباب أكاسلس كان الزعيم الكبير دببى بن صدقة أمير حلة بني أسد في العراق، هو الذي كان قد التحق بالفرنجة فيما مضى من الزمان، وشمالى موقعه هذا وفي حديقة بزوان كان أبو علي صاحب زعفران وأرقنين، وفي الشمال الشرقي كان أبناء باقساق وهم حكام سبابرق على شواطئ الفرات، وفي شرقي باب أكاساس عسكر عين الدولة صاحب شبختان، وجنوبي هذا عسكرت قبائل عديدة من التركمان وفي البوابة الجنوبية تجاه حران، وكان هنالك قبائل من العرب والرحالة ورجال من حلب ويليهم قبائل من الأكراد... وفي الغرب مقابل القلعة عسكر حسان بن بلال صاحب منبج ونصب خيامه، وقد حاول زنكي إضعاف الذين في المدينة بإرسال

اقتراحات للسلم رفضوها لأنه كان يرغب أن تستسلم له المدينة استسلاماً دونما قتل أو تدمير أو تخريب وغير ذلك، فأرسل لهم "أنصتوا أيها الحمقى، أنكم ترون ألا أمل لكم بإنقاذ أرواحكم، ماذا تنتظرون وتاملون؟ أشفقوا على أنفسكم وأبنائكم وبناتكم وزوجاتكم ومنازلكم ومدينتكم حتى لا يحل بها الخراب، وتصبح خالية من السكان"، ولم يكن هنالك أحد من السكان يملك أي سلطة، فكل واحد كان يفعل ما يريده، وهكذا تركوا للخراب والنهاية المحزنة... وكانت إجابتهم لزنكي بكل الوقاحة والإهانة... ولقد تصرف زنكي بحكمة وتعقل... بعد اقتحام جنوده المدينة والقلعة... وعندما وصل القلعة ورأى منظر المختفين من النساء والشباب والأطفال الذين تراكضوا لينجوا من القتل... ومعروف أن الطريقة والعادة السينة التي اتبعها الفرنجة بالألا يفتح الباب إلا بناء على أمر من الأسقف والألا ينفذ الأمر ما لم ير رجال الحامية الأسقف بنفسه... وقد انسحق الحشد سحقاً وذلك خوفاً من القتل والأسر، فأخذوا يدوسون بعضهم، وأنه لمنظر يستدعي الشفقة، منظر مفرع مخيف، فقد أصبحوا كتلة واحدة مسحوقة مؤلفة من خمسة آلاف شخص اختنقوا بهذا الشكل البائس، واقتيد حوالي عشرة آلاف ولد وبنت إلى الأسر... وتأثر زنكي كثيراً وأمر بإيقاف المذبحة، وحيث وصل زنكي إلى بوابة القلعة تكلم مع الحامية برفق وطلب منهم التسليم ووعدهم أن يوفر أرواحهم، فخرج قسم منهم يطلبون الأمان للفرنجة الموجودين في القلعة، واتخذ الإجراءات الضرورية لحماية سكان المدينة، فأمر بوضع الخفراء والحراس على أبواب القلعة لمنع أي شخص غريب من دخول المدينة، ورجع أهالي الرّها الباقون إلى بيوتهم وأعطاهم زنكي ما يحتاجون من الطعام وشجعهم وواساهم، وهكذا استقروا في بيوتهم... وإذا كان الذين اختنقوا أو وقعوا في الأسر أو قتلوا بحد السيف أمام القلعة، فإن الحاكم أطلق سراح عشرة آلاف من الجنود... أما أولئك الذين اختبأوا تحت الأرض أو في الحصنين فقد نجوا أيضاً، وعندما سقط الحصن الشمالي بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم أحضر زنكي المطران باسيلوس الذي كان تحت الحفظ يحرسه أحد الجنود

وبدأوا بإحضار الفرنجة الذين كانوا في الحصن مع نسائهم وأطفالهم وكذلك الكهنة والشماسة وأحضروا معهم الكثير من الذهب والأواني الفضية وما شاكل ذلك... وقد التحق بهم كثيرون لأن زنكي أقسم أن يأخذهم عبر نهر الفرات، ويطلق سراحهم ويسمح لهم بالذهاب إلى حيث شاؤوا، ودخل القائد صلاح الدين اليفسياني إلى القلعة وأخذ المطران من يده وقال: نريد من غبطتكم أن تقسموا على الصليب والإنجيل أن تكونوا صادقين معنا، وتخلصوا لنا، لأنكم تعلمون جيداً أنكم تستحقون القتل لأنكم قاومتونا واحتقرتم نبينا، نحن مستعدون أن نعاملكم معاملة حسنة ونطلق سراحكم مع الأسرى، وأنتم تعلمون أنه منذ الزمن الذي فتح به المسلمون هذه المدينة بقيت تحت سلطتهم قرون طويلة ازدهرت خلالها، وأصبحت مدينة كبرى ولكن اليوم بعد أن حكمها الفرنجة مدة خمسين عاماً أتلّفوها وخرّبوا أراضيها كما ترون، وأن ملك الأمراء هنا مستعد أن يعاملكم معاملة حسنة، وهكذا عليكم أن تعيشوا بسلام وأن تلجأوا إليه، وأن تصلوا لأجله⁽²²⁾..

وبعد اغتيال زنكي استرد الفرنجة الرّها عن طريق جوسلين الذي راسل من كان بها من الأرمن، ووعدهم يوماً بعينه يصل إليهم فيه، فأجابوه فدخل البلد، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، وبلغ الخبر نور الدين وهو بحلب، فسار إليها بعساكره، فهرب جوسلين، ودخلها نور الدين فقتل من بها وغنم أموالها وعمل بها خراباً كبيراً⁽²³⁾، ومهما يكن من أمر، فإن مقتل زنكي الذي سبقه تحرير الرّها والذي تلاه انقسام دولته إلى شاقية وجزرية شكل منعطفاً خطيراً وحاسماً في مسار أحداث الوجود الصليبي في المشرق العربي...

وقد شكّلت الرّها بحكم موقعها، ونتيجة للأعمال التوسعية التي قام بها أمراؤها الفرنجة خطراً عظيماً على ممتلكات الموصل، وممتلكات السلاجقة في أسية الصغرى، ولهذا نلاحظ أن جهود أمراء الموصل ركزت على الرّها...

وحاصروها أكثر من مرة واصطدموا بقواتها. فمثلاً قربغا أمير الموصل هو الذي قاد القوات المسلحة للتصدي للحملة الصليبية الأولى متذكّرين هنا أن الفرنجة استولوا على الرّها قبل استيلائهم على إنطاكية، وبعد قربغا نشط مودود أمير الموصل ضد الرّها وضد الفرنجة بشكل عام في بلاد الشام، وتحالف مع طغتكين أتابك دمشق إلى أن اغتيل في مسجد دمشق الجامع... وبعد مودود حين تقاعس الأمير الأرمني تمرتاش عن نجدة حلب حين محاصرتها سنة 518هـ/1124م، ذهب الحلبيون إلى آق سنقر البرسقي صاحب الموصل، فجاء للتفريج عن المدينة وقام البرسقي بضم حلب إلى ممتلكاته⁽²⁴⁾، وبعد اغتيال البرسقي بحقبة وجيزة، تسلّم زنكي أتابكية الموصل فتمكن سنة 539هـ/1144م من تحرير الرّها (كما مر بنا)، أيضاً ملك زنكي حلب وشمال الشام مع الموصل، وحاول زنكي احتلال جميع أجزاء بلاد الشام فأخفق واغتيل كما ذكرنا سنة 541هـ/1146م، أمام أسوار قلعة جعبر... وبعد اغتياله انقسمت المملكة، والمواصلة لم يعودوا يشعرون بخطورة الوجود الصليبي ونور الدين تفرغ لبلاد الشام، فتمكن من توحيد شمال الشام وجنوبه، وجعل دمشق مقراً للجهاد، وقاعدة أساس لانطلاق أعمال التحرير الشاملة والوحدة الكبرى، ووضع الخطط للتحرير وخوض معركة فاصلة ضد الصليبيين مدركاً أن شروط التحرير هي الوحدة والثقافة والأمن الداخلي والاستقرار مع الاقتصاد القوي والمتمين... ولم تعد تشغل أمور الموصل نور الدين إلا هامشياً، وللتفرغ بشكل أساسي لتنفيذ ما يمكننا تسميته سياسة شامية... وأخذ يجاهد ضد الفرنجة في الشمال، وتدخل مراراً للدفاع عن دمشق لا سيما بعد حصارها من قبل ما يعرف بالحملة الصليبية الثانية، وبعد إخفاق هذه الحملة ضعف الحكم البوري بدمشق ضعفاً شديداً، وكان معين الدين أنر سيد دمشق الفعلي قد مات⁽²⁵⁾، وفي هذه الأونة تعاظمت المخاطر الفرنجية نحو مصر... وركز الفرنجة جهودهم

على احتلال مدينة عسقلان، ويستدل من كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ أن السلطات الحاكمة في مصر أرادت التعاون مع نور الدين لإنقاذ عسقلان، وأن أسامة الأمير العربي الذائع الصيت التقى نور الدين الذي أذن له إن لم نقل ساعده على تجنيد قوة ذهب لل دفاع عن عسقلان، لكن هذا لم يجد نفعاً وسقطت عسقلان⁽²⁶⁾، ولم يستطع نور الدين التدخل لأن حكام دمشق حالوا بينه وبين ذلك، فركز جهوده من أجل الاستيلاء على دمشق، ونجح بذلك سنة 549هـ/1154م، وبنجاحه هذا توحد شمال الشام مع جنوبه، وتفرغت دمشق للعمل ضد المملكة اللاتينية في القدس العربية، مما خفف هذه الأعباء بعض الشيء عن كاهل إمارة إنطاكية الفرنجية....

وتعمقت مع الأيام اهتمامات نور الدين بمصر وجرت مراسلات بينه وبين طلائع بن زريك، لكن عدم استقرار أمور الوزارة في القاهرة لم يقتصر تأثيره على تعطيل مشاريع التعاون مع دمشق فقط، وإنما قاد ذلك إلى تشجيع الفرنجة للاستيلاء على مصر، وجاءت وزارة شاور السعدي، وطرده من منصبه والتجاؤه به إلى الشام مدخلاً مباشراً لانشغال نور الدين بالسياسة المصرية، فكانت حملات شيركوه الثلاث، وقتل شاور ووزارة شيركوه، ثم وزارة صلاح الدين، وبعد ذلك إلغاء الخلافة الفاطمية، ولئن جمد الخلاف غير المعلن بين صلاح الدين ونور الدين استثمار الوحدة الشامية المصرية لتحرير فلسطين، وفي مقدمتها القدس العربية، فإن موت نور الدين وتسلم صلاح الدين لميراثه، مكن مجدداً من استثمار هذه الوحدة فكان النصر المبين في حطين 583هـ/1187م، وتحرير القدس والساحل الشامي⁽²⁷⁾، وهام جداً أنه بفضل إمكانات مصر وبلاد الشام تمكن صلاح الدين من الوقوف في وجه الحملة الصليبية الثالثة وتعطيل مشاريعها... ومنذ ذلك التاريخ وقر في نفوس الساسة الأوروبيين أن الطريق إلى القدس يمر عبر القاهرة والحملة الصليبية بعد

الرابعة حتى مقتل لويس التاسع، ثم محتويات كتاب الأسماء الذي وضعه مواطن بندقى اسمه مارينوسانوتو برهنت على صحة هذه الأطروحة... أعود لأجدد أنه لا يمكن في أيامنا هذه للعرب تحقيق تحرير أو وحدة بدون الوحدة بين مصر والشام... وإن في هذا لدلالات عظيمة.....



- 1-انظر اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية لاغناطيوس أفرام الأول برصوم-بطريرك إنطاكية وسائر المشرق- ط. دمشق 1987- ص191 وما بعدها.
- 2-الرّها -المدينة المباركة- تأليف: ج سيفال، ترجمة يوسف ابراهيم جبرا، ط. دمشق 1988، ص1 وما بعدها.
- 3-انظر: مادتي الرّها وحران في معجم البلدان لياقوت.
- 4-الرّها، المدينة المباركة، ص 31 وما بعدها.
- 5-انظر: مادة سميساط في معجم البلدان.
- 6-انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط. القاهرة، مطبعة الاستقامة، ج8، ص9.
- 7-نفس المصدر، ج8، ص11.
- 8-نفس المصدر، ج8، ص11.
- 9-نفس المصدر، ج8، ص41 وما بعدها.
- 10-عالج هذه القضية باستفاضة د. سهيل زكار في كتابه مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ط: بيروت 1973، ص139 وما بعدها.
- 11-نفس المرجع، د. زكار، ص202 وما بعدها.
- 12-نفس المرجع، د. زكار، ص227 وما بعدها.
- 13-نفس المرجع، د. زكار، ص230 وما بعدها.

- 14-الكامل في التاريخ، ج8، ص175 وما بعدها.
- 15-المؤرخ الرهاوي المجهول في كتاب الحروب الصليبية، د. سهيل زكار، ط. دمشق 1984، ج2، ص453-455.
- 16-نفس المرجع، ج1، ص66 وما بعدها.
- 17-نفس المرجع، د. زكار، ص553 وما بعدها.
- 18-تاريخ ولیم الصوري، ترجمة عربية، ط. بيروت 1990، ص737 وما بعدها.
- 19-المؤرخ الرهاوي المجهول في الحروب الصليبية، ص503 وما بعدها.
- رواية ابن القلانسي في الكتاب نفس المرجع، ص623 وما بعدها.
- رواية العظيمي الحلبي، نفس المرجع، ص774.
- ترجمة زنكي في بغية الطلب في تاريخ حلب، ص725 وما بعدها.
- رواية سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان، ص774.
- 20-انظر: مصادر الحاشية المتقدمة.
- 21-الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج9، ص8-9.
- الباهر في الدولة الاتابكية لابن الأثير، ط. القاهرة 1963، ص66 وما بعدها.
- 22-المؤرخ الرهاوي المجهول، ص504 وما بعدها.
- ترجمة زنكي من بغية الطلب في تاريخ حلب، ص730 وما بعدها.
- المباهر في الدولة الاتابكية، ص66 وما بعدها.

- الروضتين، ج1، ص36 وما بعدها.
- 23-المؤرخ الرهاوي، ص516 وما بعدها.
- ترجمة زنكي، ص733 وما بعدها.
- الباهر، ص73 وما بعدها.
- الروضتين، ج1، ص27 وما بعدها.
- 25-ابن القلانسي في الحروب الصليبية، ص570 وما بعدها.
- الروضتين، ج1، ص120 وما بعدها.
- 26-الاعتبار، ط. برنستون 1930، ص10 وما بعدها.
- ابن القلانسي، ص539 وما بعدها.
- 27-د. سهيل زكار، حطين، ط. دمشق 1984، ص69 وما بعدها.